



يروي الطرطوشى في "سراج الملوك" أنه بعد وفاة بعض الخلفاء (المسلمين)، احتشدت الروم، واجتمعت ملوكها، وقالوا: "الآن يشتغل المسلمون ببعضهم بعضاً، فتمكننا الوثبة عليهم. وضربوا مشاورات، وأجمعوا على أنها فرصة الدهر. وكان رجل، من ذوي الرأي منهم، غائباً، فقالوا: من الحزم عرض الرأي عليه. فلما أخبروه، قال: لا أرى ذلك صواباً. فسألوه عن العلة، فقال: غداً أخبركم. فلما أصبحوا، غدوا إليه. فأمر بإحضار كلبين، ثم حرش بينهما، وألب كل واحد على الآخر، فتواثبوا وتهارشا، حتى سالت دماءهما. فلما بلغا الغاية، فتح باباً عنده، وأطلق على الكلبين ذئباً قد أعده. فلما أبصراه، تركا ما كانوا عليه وتآلفاً قلياً، ووثبا على الذئب، فنالا منه. ثم أقبل الرجل على أهل الجمع، فقال لهم: مثلكم مع المسلمين، مثل هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج والمرج بينهم، ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم. فإذا ظهر لهم عدو من غيرهم، تركوا العداوة بينهم، وتآلفوا على العدو. فاستحسنوا قوله، وتفرقوا عن رأيه".

هل يمكن إسقاط هذه الحكاية على واقعنا اليوم، واستبعاد تدخل عسكري غربي في سوريا؟ وإن تدخلَ الغرب، هل يعاود العرب النظر في حماستهم لجسم الأزمة السورية على طريقة "الناتو" في ليبيا؟ العرب اليوم لا يشبهون عرب الأمس، ولهذا فإن تدخل الدول الغربية، عسكرياً في سوريا، يلوح في الأفق، ليس لأن الغربيين لا يؤمنون بالحكاية التي روتها الطرطوشى، وإنما لافتتاحهم بأن العرب استبدلوا الأمة بالقطبية، وأصبحوا شيئاً وأقطاراً، فضلاً عن أن الغرب جرّبهم في غزو العراق، والتدخل في ليبيا.

لا شك في أن النظام السوري ما زال يمارس السياسة بشعارات تستند إلى حكاية الطرطوشى، وهو ربما عاود نهج صدام حسين، الذي أطلق صواريخ "سكود" على إسرائيل، خلال غزو الكويت، وزاد افتتاح الغربيين بالخلاص منه، فضلاً عن أن دمشق تصدق وعود الإيرانيين، وتتجه حكمتهم التي تقول: "أضعف الحيلة خير من أقوى الشدة، وأقل التأني خير من أكثر العجلة".

الأكيد أن النظام السوري ماضٍ إلى حتفه. ودمشق باتت على موعد مع مصير بغداد، وهي أصبحت تترحم على أصحابها الأول، معاوية بن أبي سفيان الذي قال لمن يمتدح زياد ابن أبيه: "أسكت، فما أدرك صاحبك بسيفه، إلا أدرك أكثر منه بليساني". لكن الأسد لا يجيد صناعة الكلام، وفن السياسة، وهو جعل أول مكائد البطش.

المصادر: